شاعر الفلسفة وفيلسوف الشعراء

أبو العلاء المعري

- ٣ -

بقلم الاستاذ شمس الدين الخطيب

معرة النعمان :

ولد أبو العلاء المعري بمعرة النعمان واستوطنها مدينة له كما استقرت بها اسرته من قبله وإياها عنى بقوله وهو في العراق:

فيا برق ليس الكرخ داري وإنما رماني إليها الدهر منذ ليالي
فهل فيك من ماء المعرة قطرة تروي بها ظمآن ليس بسالي

وهي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من اعمال حمص بين حلب وحماة . وبينها وبين حلب ٨٤ كيلومتراً الى الجنوب والغرب وبينها وبين حما ستون كيلو متراً الى الشمال . وهي في مكان يرتفع عن سطح البحر بـ « ٣٦٠ » م وبها عدة مساجد وآثار قديمة . وماؤها من الابار وفيها اشجار الزيتون والتين [١] وفيها قبر عبد الله بن عمار بن ياسر الصحابي . ذكر ذلك البلاذري في كتابه فتوح البلدان . وقيل فيها قبر يوشع بن نون وصي موسى [ع] .

وهي مقصد الرواد والسائحين ولاسيما المستشرقين لما لها من قيمة تاريخية . فقد مر بها المستشرق الفرنسي [سلمون] ووصفها بأنها جميلة قديمة قائمة في منخفض سهل فسيح ويدل الاطلاع فيها على انها كانت مدينة كبيرة وبذلك يشهد مسجدها وقبته القائمة على ثماني اساطين . كما ذكرها ابن بطوطة وابن حوقل في رحلتيهما . وقالا عنها بانها بلدة غنية مثرية طيبة المناخ خصبة التربة . وذكر القفطي والذهبي ان اهلها كانوا بخلاء ايام ابي العلاء وانه كان يضيق بذلك لكثرة الوافدين عليه من الطلاب وقلة ذات يده . وغير بعيدان يكون اهلها كذلك لما عرفناه من سوء حالتهم الاقتصادية والاجتماعية وضيقهم وفاقتهم . فان البخل وليد العدم والعوز . كما مر بها الرحالة الفارسي ناصري خسرو سنة ٤٢٨ هـ ووصفها بانها مدينة مسورة بسور من الصخر وعلى بابها اسطوانة من الحجر قد نقش عليها حروف ليست بالعربية . فلما سألت عنها قيل لها انها طلسم يذود العقارب عنها حتى لو ان احدا جلب اليها عقربا من مكان بعيد لولت هاربة منها ولم يستطع البقاء فيها . قال الدكتور طه حسين وعجيب هذا الطلسم فانا لم نر من جغرافي العرب ومؤرخيهم من ذكره بمعرة النعمان . الا ان ابن فضل الله العمري ذكر في كتابه « مسالك الابصار في ممالك الامصار » ان بمدينة حمص قبة يزعم اهل المدينة انها تذود العقارب عنها . وانك لو وضعت قطعة من الطين حتى جفت ثم نقلتها الى بيت في غير حمص من البلدان لما دخلته العقرب ولا دبت اليه . قال وعندي ان مصدر هذا طبيعة الارض بحمص [٢] .

اشتقاق لفظ المعرة :

اختلف المؤرخون في اشتقاق لفظ معرة النعمان واضافته ومعنى المعرة في اللغة كما يقول ابن الاعرابي هو الشدة والدبة وكوكب في السماء دون المجرة . والمعرة قتال الجيش دون اذن الامير والمعرة تكون الوجه من الغضب ويقول محمد بن اسحق المعرة العزم . والعر الجرب .

ويظن الاستاذ مرجليوث ان لفظ المعرة تحريف للفظ سرياني « معرتا » وتابعة الاستاذ جرجي زيدان ومعناه بالعربية الكهف والمغارة وهو وهم يفتقر في تأييده الى المصدر التاريخي المنعدم . ويظن الدكتور طه حسين ان المعرة محرفة عن [معرس] وهو المنزل الذي ينزل به الركب آخر الليل وهو اسم مكان من عرس بالمكان اي نزل به آخر الليل ومنه قول الشاعر :

فاصبحوا والنوى عالي معرسهم
وليس كل النوى تلقى المساكين

ثم ابدلت التاء من السين . وقال وتلك لغة من لغات العرب نص عليها ابو زيد الانصاري في نوادره . واستشهد لها بقول الراجز:

يا قبح الله بني العلات عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا باخيار ولا اكيات

واراد (الناس والاكياس) من البيت الثاني والثالث . وعنده ان اصلها معرس النعمان .

اما من حيث اضافتها الى النعمان فقيل ان المقصود

[١] راجع ياقوت الحموي معجم البلدان ج ٨ ص ٩٦

[٢] راجع ذكرى ابي العلاء للدكتور طه حسين ص ١٢١ - ١٢٤

النعمان هو النعمان بن بشير الصحابي قيل انه مر بها ثمات له بها ولد فدفنه واقام عليه فسميت به وشك في ذلك ياقوت الحموي وظن انها منسوبة الى النعمان بن عدى بن غطفان بن عمرو بن جريج بن خزيمة الملقب بالساطع الجمال وهو من اجداد ابي العلاء في الجاهلية . وتابعه في ذلك الدكتور طه حسين . ويظن الاستاذ مرجليوث ان نعمان اسم إله آرامي اضيفت اليه الكلمة .

بيته :

ينتسب ابو العلاء الى قضاعة وهي قبيلة كبيرة ذائعة الصيت في الجاهلية والاسلام ومن بطونها تيم الله المعروفين بـ « التنوخيين » .وهومن اسرة عريقة في المجد والفضل جل اهلها امراء ورؤساء وادباء وشعراء ، فمنهم جده القاضي سليمان بن داود قاضي المعرة وحمص المتوفي سنة ٢٩٠ هجرية والذي خلفه في القضاء ابنه ابوبكر محمد بن سليمان بن عم ابي العلاء وهو الذي يقول فيه الصنوبري :

بأبي يا ابن سليمان لقد سدت تنوخا
وهم السادة شبا نا لعمري وشيوخا

ثم خلفه أخوه عبدالله بن سليمان والد ابي العلاء المتوفي سنة ٣٧٧ للهجرة . واولاده ابو العلاء المعري وابو المجد وابو الهيثم عبد الواحد وكلهم من الشعراء المبرزين . وكذلك ابناؤهم .

وامه من آل سبيكة وهي من بيت من البيوتات المعروفة في حلب بالسخاء والرفعة والعلم والنبوغ . كما اشتهر ابناؤها بكثرة الاسفار والسياحات وجوب الاقطار . فما تكاد تطمئن بهم بلد اوتستقر بهم قدم . وفي ذلك يقول ابو العلاء مخاطباً احد أخواله :

كأن بني سبيكة فوق طير يجوبون الغوائر والبحارا
ابا الاسكندر الملك اقتديتم فما تضعون في بلد وسارا

حياته

الفكر البشرى بصيص من النور الالهي الفائض على هذا الوجود يعمره باللطف والعرفان والمفكرون مصابيحه ينعكس منهم على من دونهم فيهتدون به في دياجير هذه الحياة ولولاهم لخبط السارون في متاهاتها لايهتدون الى غاية ولا ينتهون الى نهاية ورب أمة رزقت واحداً منهم فينقلها من الظلمات الى النور ويبعثها بعد الموت والدثور . وبهم تقاس عظمة الامم وتقدر جلالتها . فبقدر مايبغ فيها منهم من نابغين تزداد عظمتها وترتفع شأنها ، ويكتب لها اسم في سجل الخلود

المعري :

هو ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان المعري القضاعي الملقب نفسه برهين المحبسين . وهو فيلسوف الشعراء وحكيمهم وشاعر الفلاسفة واديبهم لم ينبغ في الاسلام شاعر اعلى منه همة ولا اكرم منه نفساً (الا الشريف الرضي) واجدر به عالماً ان يذكر في زمرة الفلاسفة والعلماء من ان يحشر في طائفة الادباء والشعراء ، فأنه ما قال الشعر كاسباً ولا مدح احداً راغباً . وانما كان يرسله للعظة والعبرة بعد طول مراس وخبرة . ممثلا فيه امراض المجتمع وعلله موضحاً للناس علاجه وادواءه . وهو مع علو كعبه في الشعر فقد كان اماما في اللغة وآدابها وعالماً في الفلسفة وفنونها . وكاتبا من اعاظم الكتاب وافذاذها .

مولده :

ولد ابو العلاء بمعرة النعمان قبيل مغيب الشمس يوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الاول من سنة ثلاث وستين وثلثمائة بعد الهجرة الموافق لسنة ثلاث وسبعين وتسعمائة للميلاد وكان في كبره نحيف الجسم مجدر الوجه وكانت احدى عينيه نادرة والاخرى غائرة .

حياته الاولى :

نشأ في حجر أبيه عبد الله قاضي المعرة في بيت يغمره الرخاء ويعمره العلم وتعلوه السيادة . وما إن بلغ من العمر اربع سنين الا واصابه الجدرى فاودى بعينه اليسرى وغشى بالبياض اختها اليمنى . ثم اردفهما بالعمى . فكانت هذه هي الصدمة الاولى في حياة ابي العلاء وكان لهذه الكارثة الاثر البالغ في نفسه وتغيير شعوره وطراز تفكيره ولولاها لتغيرت وجهة نظره الى الحياة وبهجتها والى الدنيا وزينتها ولوجدنا منه شخصا آخر غير شخصه المبحوث عنه .

ولم يزل يدرس العلوم على يدي والده الى ان اتم دراسته

فانتقل الى حلب عاصمة الدولة الحمدانية ومحط رحال العلم ومناط آمال العلماء والادباء والشعراء الذين اكتضت بهم مدارسها وازدحمت بهم مجالسها . ممن دعاه منهم سيف الدولة الحمداني اليه تشجيعا للعلم واكراما للادب . واغدق عليهم وابل نعمه فملؤا حلبا علما وادبا واكتسب منهم ابو العلاء ثقافة ودربة . ثم انتقل منها الى انطاكية للاطلاع على مكتبتها الشهيرة فاطلع على نفائس الكتب وخزائن المخطوطات فزادته علما وخبرة . كما انه خبر فيها الروم الذين كانوا يمثلون فيها تيارا وكبرا .

ثم سافر الى طرابلس الشام ومر باللاذقية في طريقه اليها . ونزل بدير راهب فيها واخذ عنه علوم الفلسفة وغيرها واطلع على آراء النصارى فمن ثم اشتدت صلته بهم وباليهود حتى تمكن من درس دينهم ومناقشتهم فيه ثم عاد الى المعرة .

وفي الرابعة عشرة من عمره اصيب بفقد أبيه وذلك سنة سبع وسبعين وثلثمائة للهجرة فرثاه بنونيته المشهورة التي جاءت آية في الرثاء على صغر سنه والتي يقول فيها :

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن
فلا جادني الا عبوسا من الدجن
أبي حكمت فيه الليالي ولم تزل
رماح المنايا قادرات على الطعن
مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى
وسهد المنى والجيب والذيل والردن
فيا ليت شعري هل يخف وقاره
اذا كان احد في القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروي مبادراً
مع الناس ام يأبى الزحام فيستأني

وهي طويلة فراجعها في سقط الزند .

رحلته الى بغداد :

زار ابو العلاء بغداد زورتين اولاهما سنة ثمان وتسعين وثلثمائة للهجرة والثانية سنة تسع وتسعين وثلثمائة للهجرة على ما ذكره ابن خلكان واقام فيها سنة وسبعة اشهر . وفي كلتا الزورتين كان موضع حفاوة اهلها وتكريمهم لما عرفوا فيه من علم وادب وفضل وكمال وباتت داره تغص بالوافدين المعجبين بعلمه وادبه . وكنت ترى وفود الطلاب ترد ظمأى الى منهله وتصدر ريى عن عذب مورده . وبغداد يومئذ منار العلم وكعبة الآداب واتصل فيها ابو العلاء بالشريف المرتضى الذي كان ابو العلاء يجله ويعرف له فضل التقدم والعلم . وانتفع أبو العلاء بهذه الزيارة بما ينتفع به امثاله من رجالاتهم وسياحاتهم في الاقطار من الاطلاع على المكتبات الشهيرة والتعرف على الادباء والعلماء والاختلاط بذوي الفضل والمكانة . ورجع منها الى وطنه لا شيء الا لفقره وفاقته — ذلك لانه ما كان ليقبل من احد شيئا وانما كان يقتصر في عيشه على ايراده الذي كان يأتيه من خالص ماله — ولانه سمع بمرض امه في المعرة . فاضطر الى مغادرة بغداد رغم رغبة اهلها في بقائه بين ظهرانيهم فسافر عنها في رمضان سنة اربعمائة للهجرة . وبينما هو في طريقه الى المعرة اذ وافاه نعي امه . فتمت نقمته بذلك على الدنيا وزهد فيها واعتزل اهلها وسمى نفسه [رهن المحبسين] ولزم بيته منصرفا الى تصنيف الكتب والمؤلفات.

ايراده ومعاشه

كان لابي العلاء من القابليات والملكات الفكرية والفنية ما لو اراد الانتفاع بها ماديا لكان من اثرى اهل زمانه وايسرهم ولكنه لم يرد ذلك زهدا منه في الدنيا ورغبة منه عنها . وترفعا عن مذلة السؤال ومعرة التملق وخضوع التبصبص . وهذا ارقى ما تصل اليه عظمة النفس وعلو الهمة وسمو القصد . فلم يمدح احدا طمعا في مال او رغبة في جاه . بل قانعا كان بغلة وقف كانت تدر عليه كل عام ثلاثين ديناراً يناصفها بينه وبين خادمه فيدفع لخادمه خمسة عشر ديناراً ويبقى لنفسه خمسة عشر . مستعينا بها على تكاليف الحياة . وكان اكله الشعير ولباسه الصوف الغليظ . وهو اول من ابتدع الشعر الفلسفي في الادب العربي فجاءت اشعاره مملوءة باسمى المبادىء الاجتماعية والانسانية والادبية . وتكلف في الشعر لزوم مالا يلزم من التقيد بحرفين فاكثر في القافية . وبذلك اخضع شعره للسانه إثباتا لمقدرته على التصرف في فنون الكلام وقياد زمام الالفاظ والقوافي، وليدلل على علو كعبه في هذه الحلبة فكان كما قال في نفسه :

وإني وإن كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطعه الاوائل

وله من الكتابات البليغة والاراء الحصيفة ما يحير العقول ويبهر الالباب . الا انه تكلف الالفاظ الوحشية والغريب في رسالته « رسالة الغفران » ليموه على الناس رأيه ويعمي عليهم الطريق فلا يهتدون لما يريد .

ذكاؤه وفطنته :

ماساب الله من عبد حاسة الا وعوضه عنها بزيادة في ملكات الحواس الاخرى . فقد أبو العلاء بصره ولكنه اصاب حظاً من الذكاء والفطنة وسرعة الخاطر ماقل ان تجده في غيره بل ان حديثه به فتكاد لاتصدقه لانه يدخل في الخوارق والمعاجز . ولقد كان بصيراً بدقائق العلوم اللغوية خبيراً بحقائق الامور الفلسفية حبراً في المعارف المنطقية . عالماً لا يساجل ومتكلما لايطاول . وكان الى جانب ذلك كله ذكي الفؤاد وقاد الذهن شديد الذاكرة حاضر النكتة . فذكروا انه حفظ حسابا طويلا دار بين تاجرين تحاسبا عنده . وقالوا إنه كان يحفظ كل كتاب يقرأ عليه مرة واحدة .

وحدث المصيصي الشاعر قال لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب رايت رجلا شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الهزل والجد يكنى ابا العلاء وسمعته يقول انا احمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر .

قالوا ودخل على الشريف المرتضى فعثر برجل كان جالساً فقال الرجل : (من هذا الكلب ؟ ؟) فاجابه المعري على الفور : « الكلب الذي لايعرف للكلب سبعين اسماً » فأدناه المرتضى واختبره فوجده عالماً مشبعاً بالفطنة والذكاء فاقبل عليه واكرم مثواه . وكان ابو العلاء يتعصب لابي الطيب (المتنبي) ويقول انه هو المعنى بقول المتنبي : :

أنا الذي نظر (الاعمى) الى ادبي
واسمعت كلماتي من به صمم

فحضر المعري يوما مجلس الشريف المرتضى وكان الشريف يبغض المتنبي ويتعصب عليه فجرى ذكر المتنبي فتنقصه الشريف وغض منه فقال المعري لولم يكن له من الشعر الا قوله :

لك يامنازل في القلوب منازل اقفرت انت وهن منك اواهل

فغضب المرتضى فامر به فسحب واخرج من مجلسه ثم قال المرتضى لمن بحضرته : « أفطنتم لما يريد هذا الاعمى ؟؟ »

قالوا : لا قال : يريد قوله في هذه القصيدة :

واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

فتعجب الناس من كليهما .

وكان ابو العلاء يقول لا اعرف من الالوان الا الاحمر لاني ألبست في الجدري ثوبا مصبوغا بالمصفر لااعرف غيره

وذكر تلميذه ابو زكريا التبريزي انه كان قاعداً في مسجده بمعرة النعمان بين يدي ابي العلاء يقرأ شيئاً من تصانيفه قال وكنت قد اقمت عنده سنين ولم ار احداً من اهل بلدي فدخل المسجد بعض جيراننا للصلاة فرأيته وتغيرت من الفرح فقال لي أبو العلاء اي شيء اصابك فحكيت له اني رايت جارا لي بعد ان لم القى احداً من اهل بلدي سنين . فقال لي قم فكلمه فقلت حتى اتمم النسق فقال لي قم وانا انتظرك . فقمت وكلمته بلسان الآذربايجانيه شيئاً كثيراً الى ان سألت عن كل ماارادت فلما رجعت وقعدت بين يديه قال لي :(اي لسان هذا ؟؟) «قلت له هذا لسان آذربايجان » فقال لي (ماعرفت اللسان ولافهمت غير اني حفظت ما قلتما . ثم اعاد علي اللفظ بعينه من غير ان ينقص منه او يزيد عليه . بل جميع ماقلت وقال جاري فتعجبت غاية العجب من حفظ مالم يفهمه .

وفاته :

توفي ابو العلاء ليلة الجمعة لثلاث مضين من ربيع الاول وقيل لعشرة مضين منه وقيل ثالث عشر منه سنة تسع واربعين واربعمائة بالمعرة من علة عاودته ثلاثة ايام كانت وفاته فيها بعد ان عمر حتى نيف على الثمانين واوصى بأن يكتب على قبره :

هذا جناه ابي علـــــى وما جنيت على احد

ولم يكن عنده حين موته غير بني عمه فقال لهم في اليوم الثالث : اكتبوا عني . فتناولوا الدوى والاقلام فاملى عليهم غير الصواب فقال القاضي ابو محمد عبد الله التنوخي : احسن الله عزاءكم في الشيخ فانه ميت فمات . فرثاه تلميذه أبو الحسن علي بن همام بقوله :

إن كنت لم ترق الدماء زهادة فلقد اسلت اليوم من عيني دما
سيرت ذكرك في البلاد كأنه مسك فسامعه تضمخ او فما
وأرى الحجيج اذا ارادوا ليلة ذكراك اخرج فدية من احرما

بغداد يتبع شمس الدين الخطيب